مجلة أنثروبولوجية الأديان المجلد 16 العدد 02 بتاريخ 2020/06/15
ISSN/2353-0197 EISSN/2676-2102

الأسس المعرفية والدينية لعلم الأنساب

Cognitive and Religious Foundations of Genealogy

د. محمد بسناسي[1]
Dr. Mohammed Besnaci
دكتور من جامعة ليون الثانية (فرنسا)
Doctor from Lyon II University (France)
mohammedbesnaci69@hotmail.fr

تاريخ الارسال: 2019/11/11 تاريخ القبول: 2020/03/30

ملخص:

ستعالج الورقة البّحثيّة مسألة علم الأنساب عند العرب بخاصّة وعند الغرب كذلك. ومن المعروف أنّ علم الأنساب حظي قديما باهتمام العرب، كما أنّه شغل بال الغربيين؛ فوضع العلماء والنسّابون في ذلك تصانيف ضخمة، عنتْ بتقّفي أصول القبائل وتفرعاتها، كما نظرتْ في توزيع وانتشار الجماعات البشريّة، في مختلف المناطق والبلدان. ولمسألة تقصّي الأنساب والأصول خطورة لا تخفي على نابه، لما تمليه من نظرة بائنة للمعتقَد الديني مثلا، وَلأَدَلّ على ذلك من اختلاف الوجهات اليهوديّة والنّصرانيّة والإسلاميّة حول نسب المسيح وهوّيته، كما أنّ علم الأنساب يؤثر تأثيرا مباشرا في تلقّي، وقراءة، وتأويل التّاريخ، ومن ثمّة في توجيه طريقة كتابة الحدث التّاريخيّ وسرده، وفق أنساق معيّنة. وهناك أيضا علاقة وثيقة بين علم الأنساب والجانب السياسي؛ إذ إنّ تعقّب تطوّر التجمعّات البشريّة، وما يطرأ عليها من تغييرات سياسيّة دائمة، إنمّا تعود بواعثها الرئيسيّة إلى آليات الأحلاف المعقودة، وتدافع العصبيات المتنافسة من أجل بسط النفوذ وبلوغ المجد؛ ذلك أنّ العصبيّة تحتكم بالدرجة الأولى إلى الهوّية الجامعة؛

[1] المؤلف المرسل د. محمد بسناسي mohammedbesnaci69@hotmail.fr

ISSN/2353-0197 EISSN/2676-2102

وبمعناها البسيط: الأصل القبلي المشترك. كلّ هذا يجعل من أمر تدراس علم الأنساب ضروريا بتحليل أطر وسياقات استخدامه المتنوّعة، ومواطن تجلّي هذا العلم في الجانبين العربي والغربي.

كلمات مفتاحية: علم الأنساب.، العصبيّة.، الانتماء.، الهويّة.، السياق.

Abstract:

This paper will deal with the question of genealogy especially in Arabic background and also in Western background. It is well known that both Arabs and Westerners have shown a huge interest to the field of genealogy. Scientists and genealogists wrote tremendous books, which meant to trace the origins and branches of tribes, and considered the distribution and spread of human groups, in various regions and countries. The question of the genealogy and origins has a serious significance for religions. We can mention here the example of the different Jewish, Christian and Islamic points of view regarding the lineage and identity of Christ. So, the religious representation of genealogy has a great impact on the way the historical event is written and narrated, according to certain sort of interpretation and thinking.

There is also a close relationship between genealogy and the political aspect. The main reasons of tracking the development of human groups and the permanent political changes, that have occurred, are due to the mechanisms of the strategic alliances and the competing groups which aime at coming to power and seeking glory. In its simple sense, *Al Assabiyya* is based on the common tribal origin. We should also notice that the representations of genealogy have to do with linguistic and semantics levels when we focus on the onomastics; especially its circumstances and contexts. Therefore, this is why it is important to study as much as possible the different contexts and foundations of genealogy. It is also interessant to determine the main representations of this science in the Arabic and Western sides.

Keywords: Genealogy; Al Assabiyya; Identity; Belonging to a group; Context.

مقدمة:

تحيط بالفرد جملة من الأحياز أو الحلقات التي تقترب من مركز ثقل هويّته المصقولة والمعروفة؛ فإذا ابتعدنا كثيرا وجدناه ابن حضارته، وإذا اقتربنا شيئا فشيئا من مركز دائرة الهويّة المشكِّلَةِ له، ألفيناه، ابن بلده، وابن منطقته، وابن قبيلته، ثمّ ابن أسرته. وفي كلّ حلقة ورد ذكرها، تحصُل له معالم شخصيّة مكينة، وأواصر ارتباط متينة؛ فتنشأ فيه روح الانتماء، بحسب درجة التعلّق والتعصّب والتّربية. ولا غرو أنّ التمسّك بالأرض والتعاطف مع بني جلده من الغرائز المستحكمَة فيه قهرا، ومن الطبائع المودعَة فيه بالجبّلة. وبذا، تتولّد فكرة الجماعات المتباينة الانتماءات في الفضاء الواحد، وكل جماعة ما، تتقاسم حيّزا من الأحياز، أو تتقاطع في دائرة من الدوائر المشتركَة. ومن المباحث التي عنتْ بمسألة الأصل والانتماء والهويّة علم الأنساب. هذا المبحث الهام عُرِفَتْ به العرب قديما، نظرا لإيلائها ذلك الحجم العظيم من التتبّع في مسألة أصول القبائل، وتفرعاتها، وتاريخها، وسماتها، وأوْلَى الغربُ كذلك اهتماما بعلم الأنساب لأغراض شتّى؛ فعلم الأنساب كان قديما بمثابة ثبت الحالة المدنيّة، التي تعود بالمرء إلى شجرة أصوله، فتعرّفه بآبائه وأجداده، وتحيطه خُبرا بتاريخهم، وبقطاعات وافرة من تجاربهم في الحياة، بحسب كثافة المعلومات المدوّنة ونوعيتها. ولعلم الأنساب سياقات توظيف تاريخيّة، وسياسيّة، واجتماعيّة، ولغويّة، وأخرى متعلقّة بالثقافة الدينيّة. لذا، سنعكف على استجلاء ماهيّة علم الأنساب ومكانته بداءة، ثمّ سنرصد أبرز مجالات علم النسب وتمظهراته التي يفرزها؛ وذلك بالنظر في نماذج من فترة العهد العثماني في الجزائر، زيادة على تدارس أمثلة تمسّ فترات متفاوتة مستلهمَة من الجانبين العربي والغربي، حتّى تَحصُلَ لنا صورة عامة وكاشفة، من شأنها استيضاح تجلّيّات علم الأنساب وسبر أنساقه المختلفة.

أولا: طبيعة علم الأنساب:

ورد في (معجم اللغة) لأحمد مختار عمر ما يلي: "نَسَب [مفرد]: ج أنساب (لغير المصدر): 1 مصدر نسب 2 تتابع النسل في أسرة، قرابة بالاشتراك في الأبوين أو أحدهما "شجرة/ سلسلة النسب: مخطط أو تخطيط بفروع تظهر صلة الوراثة والقرابة" (أحمد م. عمر، 2008، ص2200) "؛ فمن طريق النسب، يظهر تشجير العائلة وامتدادها في الزمن، وتبرز علائق النسب بوضوح جليّ بين الأفراد، حيث يمكن التمييز بين الأصول والفروع، ولا غرو أنّ "علم النسب علمٌ جليلٌ رفيعٌ، إذ به يكون التعارف" (ابن حزم الأندلسي، 1982، ص 2) "، إذ لما تُعرَف طبيعة الصلات بين الأفراد ومراتبهم فيما بينهم، يَسْهُلُ

التّفصيل في تصفية وتقسيمه الميراث مثلا، ويتبيّن مدى مشروعية التزاوج عندما يُتجنَب عقد القران بين من لا يتسنّى لهم ذلك، وتُعرف مكانة كلّ فرد ومنزلته من عشيرته؛ لذا فلهذا العلم منافع جمّة، وأهميّة كبرى، وآية ذلك أيضا أنْ "قد قصّ الله تعالى علينا في القرآن وِلادات كثير من الأنبياء عليهم السلام وهذا علم نسب" (ابن حزم الأندلسي، 1982، ص 8)، وهي ولادات كانت مشهودة لما غيّرته من مجرى للحياة، ولرمزيتها الدّالة على عظمة الخالق، ومدى قدرته في تبيان الآيات للناس؛ فقد بُشّر زكريا بولد إسمه يحي، وخُلِق عيسى من أنثى بلا ذكر، وعلم الأنساب يتخذ موضوعة "البّحث عن أفراد أحياء أو أموات لعائلة ما" (Alain Nemo, 2008, p 247)، ويرتكز بهذا علم الأنساب على معرفة الصلات بين الفروع والأصول، وهو ما يحفظ تكاثر الذريّة وتواصل النسب وعدم إختلاطه، ولا ريب أنّ مفتاح معرفة القرابة هو الاسم العائلي، وما ينطوي عليه من قاسم مشترك بين جماعة بشرية ما، تشكّل الفيصل في تحديد الانتماء العضوي لشجرة ما دون سواها، فتميّزها عن غيرها، وتجعلها تجمع ما تفرّع عن الأصل بشكل تسلسلي وتراتبيّ، وبذا فالاسم "إرثٌ من أجدادنا، وعنصرٌ محوريٌّ في هوّيتنا؛ فالاسم يميّزنا عن الآخرين، ويموقعنا في مجتمع ما، وثقافة ما، وبلا اسم نحن عديمو الوجود" (Jean-Marie Plonéis, 1996, p 7). وبناءً على ما جاء في نصّ هذا التّوثيق، يتّضح أنّ مِن أُسُس الهوية الصلدة الاسم؛ لأنّه حمّال لامتدادات وتأصيلات بنيوية تاريخيّة، وعاكس لنطاقات وحدود جغرافية، وهو نتاج جملة تفاعلات وتراكمات اجتماعيّة ديناميّة، ومن ثمّة هو بمثابة ميسم للانتماء الجمعي، ويشكّل بالإضافة إلى ذلك طابعا للتحيّز الثقافي، كما أنّ المشتغلين بهذا العلْمِ يُسَمَّون علماء أنساب، وهم "المهتّمون بالقرابات، وبتتابع الأنسال في الأسرة الواحدة أو العرق الواحد" (أحمد ع مختار، 2008، ص 2200). وعلماء الأنساب عنوا بقرابات القبائل، وتتبّع أصولها بفروعها، كما فصّلوا في انتماءات الجماعات البشرية وسيرورة انتشارها وديناميّة توزعها الجغرافي ومآلاتها المتباينة في سِفر التّاريخ. ويصوغ النسب ديناميّة التاريخ المحتدمة، ويفسّر التطورات الجيوسياسية، ولأدلّ على ذلك في التاريخ المغاربي ما حدث من تكتّلات بعد تفكك دولة الموحدّين؛ وبداية تشكّل لدويلات تعتصم بالانتماء للعائلة الحاكمة الواحدة، تنضوي تحتها الجموع والجماهير، تحت دافع العصبية بالمفهوم الخلدوني، وما ينجرّ عنها من اللجوء إلى عقد آليات أحلاف لتقوية الشوكة، والوصول إلى الملك والرياسة (أنظر محمد عابد الجابري، 1996). وكانت نواة تحريك التغالب المستمر في عصر ما بعد الموحدّين القبيلة بالمفهوم الجابري، وميولاتها ونزعاتها في التناصر والتعاضد مع الطرف الذي يخوّل لها تحقيق ما تبتغيه من مآرب في

الوجود والانتفاع من الملك والحظوة بقدر المستطاع؛ فتقترب من القوى التي تراها أقرب إلى انتزاع زمام الحكم والقيادة. "إنّ القبيلة في هذا العهد كانت عبارة عن جيش يعيش دوما على أهبة القتال، وإلا سقطت بين عشية وضحاها فريسة في يد المغيرين، فيضمحل كيانها وتصبح تابعة، وأحيانا مندمجة، في الكيان القبلي المتغلب عليها" (المرجع السابق، ص 24). وبذا فقد كانت القبيلة بوصفها بنية متجانسة في هوية الانتماء تصنع الفارق فيما تنزع إليه من إلتحام مع هذا الطرف أو ذاك، ولقد كانت تعوّل على التماهي في آلية الأحلاف الداهمة بغية الحفاظ كذلك على تماسكها الوحدوي والنسبي، وعلى ديمومة وجودها الذاتيّ؛ فهي ضعيفة التأثير منفردة، لكن قويّة الشوكة لما تلتحق بما سواها من القبائل المتحيّزة لطرف ما. ومنه فقد كان النسب يلعب دورا بارزا في صقل معالم الحكم وإرساء أركانه؛ أي في تضعيف طرف ما أو في تقوية طرف آخر.

ثانيا: الاعتناء بعلم الأنساب:

لقد حفلت المدوّنة التراثيّة العربيّة بمصنفّات، صالت وجالت في مبحث علم الأنساب؛ فقيَّدَتْ أصول قبيلة من القبائل، أو أنساب بطن من البطون، أو خاضتْ في تدوين معارف تتّصل بجمهرة من الأعلام. ومن أمارات عناية العرب بالأنساب أنّها زعمت كفاية فضل النسب والقرابة من الرسول؛ فجاء الردّ في سورة الفرقان: ﴿ فَإِذَا نُفِخَ فِي الصُّورِ فَلَا أَنسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلَا يَتَسَاءَلُونَ ﴾ (سورة الفرقان، الآية 54)، ونزلت في قريش لما رأته من كفاية شرط النسب إلى الرسول، للفوز بالنعيم الأخروي دون إيمان بالرسالة؛ "ولقد ادّعت قريش حين بعث الله عزّ وجلّ نبيّنا محمد (صلعم) أن يدخلوا الجنّة بالنسب دون الإيمان، فقالوا إنْ كان ما يقول محمّد حقّا، إنّه فرعٌ منّا ونحن أصلُه، يكون عِزُّه عِزُّنا، وفخره فخرنا، وشرفه شرفنا، نَدْخُلُ الجنّة بأنسابنا" (أبو بكر الصنهاجي البيذق، 1971، ص 9)، والحقّ، فقد فنَّدت الآية مزاعم فضل النسب في مسألة الفوز الأخروي دون إيمان، ودون أن يكون الإيمان مشفوعا كذلك بفعل الأعمال الصالحة.

ومع ذلك، ففي الثقافة الإسلاميّة، يؤول القصد من تعدّد القبائل، وتباين الشعوب، واختلاف الأنساب، إلى غاية مفادها تحقيق التعارف، وقد بيّن القرآن ضرورة وصل وبرّ الرحم : ﴿يا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً ۚ وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ ۚ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾ (سورة النساء، الآية رقم 1)، كما ورد في الحديث: "تعلموا

مِنْ أنسابكم ما تَصِلُونَ به أرحامكم" (الحافظ أحمد العسقلاني، 2001، ص 414)، فَصِلَةُ الرَّحِمِ لا تتّم دون معرفة مُسْبَقَة بالأهل والأقارب. وقد وُضِعَتْ المصنّفات النّاظرة في الأنساب، والمؤرّخة لأسماء الأعلام جيلا بعد جيل؛ بناء على ما للنّسب من أهميّة في تمتين صلة القرابة العائليّة، وكذا في تعزيز التعارف بين الشعوب، إذ الاختلاف الحاصل بين الأمم والقبائل مدعاة للتعارف والتآلف لا التنافر والتناحر، ومن ثمّة فاز علم الأنساب بمزية التّعريف بالقبائل بعضها ببعض؛ ذلك أنّ "تشعّب الأنساب على افتراق القبائل والطوائف أحد الأسباب الممهدّة لحصول الائتلاف" (أبو سعد السمعاني، 1977، ص 3).

واعتنتْ العرب أيّما عناية بوضع مؤلَّفات تخصُّ النسب؛ فصنفَّتْ كُتُبًا عالجت سير الأعلام والطبقات، إذ لم يكتف المصنِفون بصون المتون المرويّة، بل وزادوا أن ترجموا للأعلام، وصانعي التّاريخ، وناقلي الأخبار، ولعلّ آية ذلك علم الجرح والتّعديل، والذي نظر فيما نظر في نسب الرواة، وطباعهم، وتواريخ عيشهم، حتّى تستبين مكانة كلّ واحد العلميّة، والأخلاقيّة، والطبقة اللائقة به، من حيث الأمانة والثقة، ودرجة الصدق والنزاهة، من أجل حصول تقييم موضوعيّ للنّص المرويّ، وغدا النظر في النسب إذاً بمثابة الآليّة المعرفيّة لفحص مصداقيّة سلسلة الروّاة، ولم يُعوَّل فقط على طبيعة المتن وحده، بل وعلاوة على ذلك عُولجت جهة الأسانيد، وهوّيات أصحابها.

واشتهر في التّاريخ الإسلامي أبو بكر الصديق، بِأَنْ كانت له قدم راسخة في علم الأنساب، وعنه "قال ابن اسحق: كان أنسب العرب، وقال العجلي كان أعلم قريش بأنسابها" (بكر أبو زيد، 1987، ص 13)، وقد عوّل عليه الرسول لما شرع في الدّعوة إلى الإسلام؛ فقد كان أبو بكر أَدْرَى من غيره بأنساب القبائل وتقسيماتها، "ولما أَمَرَ الله تبارك وتعالى رسوله صلّى الله عليه وسلّم أن يعرض نفسه على قبائل العرب، خرج، وأنا [علي] معه، وأبو بكر رضي الله عنه، فدفعنا إلى مجلس من مجالس العرب، فتقدّم أبو بكر وكان مُقدَّما في كلّ خير، وكان رجلا نسَّابة، فسلَّم وقال: ممّن القوم؟..." (أبو سعد السمعاني، 1977، ص 35)، وبذا فالنسب كان وسيلة تعريف بهويّة القبيلة، ليعُمَّ الاطمئنان قبل أيّ حديث، وليحصل شيء من الاستئناس مع الطرف المتحاوِر، ويَيْسُرَ بعد ذاك طرح موضوعة النقاش، والتي هي في سياق النص المقتبَس الآنف ذكره أَمْرٌ خطيرٌ، تمثّل في عرض الدّعوة إلى دين الإسلام، لاسيّما وأنّه كان آنئذ في بواكيره الأولى. ومن ثمّ، فالنسب مفتاح من مفاتيح التّعريف بأصل القبيلة، وإفصاح عن طبيعة جذور المرء وامتداد عرقه؛ فسؤال النسب يُضارع، في الواقع، السؤال عن الهويّة والأصل والطينة. وكان عمر بن الخطّاب أوّل من وضع

الدواوين، ورتّب الجند، بحسب قرابة القبائل من رسول الله، "وجائز أن يقال: إنّ هذا الديوان هو أوّل كتاب في الأنساب" (بكر أبو زيد، 1987، ص 13)، عند العرب.

ثالثا: غايات الدراية بالنسب

من غايات الدراية بالنسب ما يتيحه من معرفة بالأقارب والأهل؛ فَيَتَيّسَر إذّاك، وصلهم، لما لصلة الرحم من مكانة متميّزة في توطيد العلائق الوديّة والاجتماعيّة. وفضلا عن تحقيق التلاحم العائلي، والتعارف البشري، فإنّ العناية بعلم الأنساب رمتْ كذلك إلى معرفة حقوق الورثة. ومن منطلق أنّ الميراث ينتقل بين الأهل والأقربين، تَبَعاً لما يتمتّع به كلُّ وارثٍ من نصيب حسب درجة القرابة؛ فإنّ علم الأنساب هو طريق معرفة الفروع والأصول، وفي ضوئه يأخذ كلّ ذي حقّ حقّه. وعلى هدي علم الأنساب أيضا، تُحترَمُ الضوابط المتعلقة بالزواج؛ فيمتنع اختلاط الأنساب امتناعا، ومن ثمّة يتحقّق تنظيم اجتماعي، بحيث يكون متوازنا، ومضبوطا، وغير شاذ.

وتسنح قراءة عميقة في مجالات النسب، باستجلاء أنساقه المتباينة في التعاقب التّاريخي، والتغيّر الاجتماعي، والتشاحن السياسي. فالكثير من نُظُمِ الحُكم القديمة والحديثة، ثَوَتْ شوكتها على مبدأ الانتماء الأُسَرِي في تداول الحكم؛ فتوالت العوائل، وساست الشعوب والبلدان بإمرتها. وانحصر الحكم في ذريّة بعينها، تعاقبتْ إذّاك في تدبير الشأن السياسي، مثلما حصل مع الأمويين، ثم العباسيين؛ أي اقتصار الملك على أفراد السلالة الواحدة، ولازالت بعض البلدان إلى اليوم، تحتكم إلى منطق النسب في اعتلاء سدّة الحكم عند العرب أو في الغرب.

وتنعكس غاية الدراية بالنسب، لما قد يحفظه من زخم ثقافي رائج في مجتمع من المجتمعات، ولما يصونه من رأس مال معرفي رمزي، تختزله نخبته العالِمة والمستنيرة، فَتُتَداوَلُ فضائلها وما حقّقته من نتاج معرفي مشهود له؛ إذ مضامين مصنّفات النّسب، تروي كذلك مآثر عن علماء ومشاهير، تركوا بصماتهم في التّاريخ. وقد تفنّن الكثير من الجزائريين في وضع أنساب أعلام تميّزوا في العلوم وفي صلاح السريرة؛ فأفردوا لهم ذكرا، منه ما جاء شعرا، ومن ذلك ما صنعه أحمد بن قاسم البوني (ت 1139هـ)؛ " فقد عمد إلى نظم رجز طويل في علماء وصلحاء مدينة عنّابة سمّاه (الدرّة المصونة في علماء وصلحاء بونة)، والواقع أنّ هذا الرجز الذي بلغ ألف بيت يعرف بالألفيّة الصغرى" (أبو القاسم سعد الله، 1998، ص 352)، وهناك من احتفى بالأعيان والشرفاء لمنطقة ما؛ فألّفوا فيهم متونا نثريّة، ومن ذلك "عبد الرحمن بن عبد الله التجاني

[ت. ق11هـ] في عمله الذي سماه (عقد الجمان النفيس في ذكر الأعيان من أشراف غريس). من العنوان يتضح أنّ هذا العمل يتناول الأولياء والصلحاء والعلماء والأشراف، في ناحية أغريس بالذّات" (أبو القاسم سعد الله، 1998، ص 353).

رابعا: سياقات علم الأنساب:

يبلغ أثر النسب مبلغا هامّا ومؤثّراً على أكثر من صعيد، لما ينبثق عنه من سياقات شتّى، من شأنها أن تسهم في تقديم قراءات واعيّة للحدث التّاريخي، وأنْ تعون في تفسير التمظهرات الثقافيّة الشائعة في هذا المجتمع أو ذاك، وما ينشأ عنها من طقوس خاصّة، وتقاليد فريدة، ولاريب أنّ علم النسب يتمظهر في الكثير من المجالات، وتجلّياته تختلف من ميدان لآخر. والحقّ، لقد قُيِّضَ لعلم الأنساب أن يتوشّح بخلفيات في الثقافة الدينيّة، والحراك السياسيّ، والتحوّلات الاجتماعيّة، والقراءة التّاريخيّة، بل وله أيضا مرجعيات وخلفيات لغويّة، وهذا ما سنسعى في عجالة إلى إبراز جملة من مفاصله. والغاية المرجوّة تتلخص في استلفات الانتباه إلى مدى حضور علم الأنساب ووزنه، وما يترتّب عن تنوّع سياقاته، وما ينجم عنه من آليات تسوّغ مضامين، ومبادئ، وَرُؤًى حول المعتقَد، كما تتولّد منه وعنه طائفة من التداعيات، وحزمة من الدلالات الرمزيّة التي تسمح بممارسة التَّأويل، لدَرْكِ العادات المشتركة المتعارف عليها في المجتمع، ولتفكيك أصول الهوّيّة وتلابيبها.

1 السياق الدينيّ:

1.1 أنساق النسب في المدوّنة الإسلاميّة:

تتجلّى الكثير من أنساق النسب في النصوص المؤسِّسة للدّين الإسلامي؛ فلقد خَصَّ الله رُسُلَهُ بأصالة المعدن، وبطهارة النسب، وبرفيع الشرف، فكانت مكانة الأنبياء بين أقوامهم ساميّة؛ ذلك أنّ الشجرة الصالحة فرعها ثابت وأصلها في السماء، وَسُوَرٌ عديدات تحدّثت عن ميلاد الأنبياء، مثل تبشير زكريا بولد اسمه يحي. وقد بيّن القرآن وصحّح نسب المسيح، لما للأمر من خطورة بالغة، وَرَدَّ على معتقَدَات النصارى، وَخَصَّ القرآن آل عمران بالذكر، وبتبجيل مريم البتول وتكريمها بسورة كاملة. ويُلاحَظ أنّ نسب خاتم الأنبياء، لم يَطْعَن فيه المناوئون له؛ ومبعث ذلك أنّ القرشيين كانوا على دراية كافية بالأنساب، بل وعهدوا المفاخرة والمباهاة بها؛ فقد حسبوها مَكْرَمَة، وعدّوها مزية يُتفاضَل بها. وكان نسب الرسول شريفا، منتهيا إلى إسماعيل ولد إبراهيم عليهما السلام. وفيما يروى عن الرسول أنّه كان يؤكد شجرة نسبه بالقول: "إنّ الله عزّ

وجلّ اصطفى من ولد إبراهيم إسماعيل واصطفى من ولد إسماعيل بني كنانة، واصطفى من بني كنانة قريشا، واصطفى من قريش بني هاشم، واصطفاني من بني هاشم".

كما جاء القرآن ليصحّح الكثير من المفاهيم الخاطئة، ومنها مسألة تتعلّق بالنسب، والمتمثّلة في التبنّي؛ إذْ كان الابن المتبنَّى يُدْعَى إلى مَنْ تبنّاه، وكان زيد بن حارثة يدعى بزيد بن محمّد؛ فنزلت الآية: ﴿مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِنْ رِجَالِكُمْ وَلَٰكِنْ رَسُولَ اللَّهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ ۗ وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا﴾ (سورة الأحزاب، آية 40)، ومن جهة أخرى، فالانتساب إلى دين جديد يؤدي في غالب الأحيان إلى تغيير الاسم، كي يتواءم الانتساب الديني مع اسم الشّخص، انطلاقا من كون الاسم عنصراً رئيساً من هويّة الفرد، وَوَسْمًا للانتماء العقائدي، "وَيَدُلُّ تغيير الاسم على تغيير الهوّيّة، ومن ذلك ضرورة تغيير الاسم في حالة اعتناق دين آخر" (Annemarie Schimmel, 1998, p 22)، وهذا ما يشير إلى مدى الارتباط الوثيق الحادث بين طبيعة الاسم ونطاق الهويّة الحيوي، فالاسم عاكس لعمق الهوية وتجذّرها، إذ هو بمثابة عنوانها وميسمها الذي يقود إليها، ولا مندوحة من كون "التّسميّة [شكلا من أشكال] بَثِّ الوجود" (Daniel Widlocher, 2010, p 356)، ومفاد هذا التّدليل أنّ الاسم يكرّس تحيّزا وجوديا وثقافيّا ما بما تنطوي عليه كلمة ثقافة من عمق في الانتماء بل ومن الميل المتعمد في البوح عن طبيعة الانتماء هذا.

1.2 تأثير الثقافة الإسلاميّة في التصدّي للنسب:

ومن النسّابة الجزائريين في العهد العثماني من كان مدفوعا بالروح الدينيّة في وضع تصنيف في علم الأنساب، ويمكن أن نذكر كتاب (البستان في ذكر الأولياء والعلماء بتلمسان) لأبن مريم المديوني (ت بين 1025هـ و1028هـ)،إذْ التفت فيه صاحبه إلى تقديم جمهرة علماء تلمسان، والأولياء الصالحين، وحتّى الدراويش، بل أورد كذلك أخبار علماء من المشرق والمغرب، وانتظم ذلك على حسب ترتيب حروف المعجم، "وكان المؤلِّف نفسه يعتقد في ولاية الأولياء وكراماتهم، لذلك حشا كتابه بأخبار هذه الكرامات والخوارق" (أبو القاسم سعد الله، 1998، ص 354)، ومن طرائف الوضع عند ابن مريم أنْ كان يدرج في المتن أسماء غير تلمسانيّة، لاعتقاده بما لها من فضل وبركة، "وحين لم يجد شخصا اسمه يوسف ترجم لرجلين اسمهما يوسف من غير تلمسان "تبرّكا بهما"، ويكشف ما ذكرناه إذن على أنّ خطّة ابن مريم ليست منسجمة ، فقد كان مدفوعا بالروح الدينيّة أكثر من الروح العلميّة" (المرجع السابق نفسه).

1.3 علم النسب في العقيدة المورمونيّة:

وكان حِذْقُ علم الأنساب رائجا أيضا عند الغرب، ولاسيما لدى الملّة المورمونيّة؛ إذ عُدَّ "علم الأنساب كضربٍ من الواجب الديني؛ فقد كانوا ملزمين بالبّحث عن أصولهم العائليّة، وإيجاد أجدادهم لتعميدهم في الملّة المورمونيّة، كي يُتاح لهم لقاء عوائلهم في العالم الآخر" (Guillaumme Morant, 2015, p 8)، وكان الباعث عند أتباع مورمون من فقه علم الأنساب، ذا بعد دينيّ عقائديّ. ووجب تقصّي ومعرفة الأصل العائلي وجذوره، كفريضة، حتّى يتّم لمُّ شمل العوائل سابقها بلاحقها، للفوز بلقياهم في الآخرة. وهذا ما ينّم عن رسوخ فكرة جمع الشّمل الأسري في الحياة الأبدية الأخروية، وعندما تتيّسر معرفة أفراد العائلة تُنَظَّمُ طقوس التّعميد، بحيث لا تقتصر على الأحياء فحسب، بل ويمكن أن تشمل فضلا عن ذلك الأجداد القدامى من الموتى؛ فتكفي معرفة أسمائهم وعلاقات النسب بهم، كي يحصُلَ تعميدهم وفق المراسيم المتّبعة. وقد كان يدفعهم منطلق تصورهم هذا أنّه "لما تحصل معرفة الأجداد، يتقوّى الرابط بين الأجيال في الماضي والمستقبل، على حدّ سواء" (G. Morant, *Idem*).

2 السياق التاريخيّ:

1.2 النسب وتأصيل الأعراق:

علم الأنساب ليس مجرّد ذكر لسلسلة أسماء متصلّة بعضها ببعض من طريق رابطة الدّم، لكنّه مبحثٌ يسرد روايات من التّاريخ، ويروي أخبارَ وحكايات عوائل وما جرى لها؛ فعلم الأنساب من هذه الجهة يتّسم بامتداد تاريخيّ، إذ ينقل ما آلت إليه القبائل، وما حصل لها من مصائر، كما تُحَدِّثُ مصنفّاتُ علم الأنساب عن القبائل والأعلام والشعوب، وتسرد ذكرا لها، وما حلّ بها من حوادث الزمن: من هجرات، وأمراض، وحروب، ونزاعات وتحالفات... إلخ. وفي تضاعيف مصنفّات علم الأنساب، تَرِدُ ملاحظات تاريخيّة، ومن ذلك ما ذهب إليه البلاذري (ت 892م)، لما حاول تحديد أصول الشعوب البربريّة؛ إذْ بالنسبة إليه إنمّا ينحدرون من العماليق، ويعقّب قائلا: "والبرابرة اليوم يقولون : نحن بنو بر بن قيس. وذلك باطل. وإنما غزا رجل من التبابعة، يقال له أفريقيس بن قيس بن صيفي الحميري إفريقيّة فافتتحها. فسميّت به" (البلاذري، 1996، ص 11)، وقد قال أبو القاسم سعد الله بالأصول العربية القديمة للأمازيغ: "الأمازيغ هم عربٌ متقدّمون في نزوحهم إلى شمال إفريقية" (أبو القاسم سعد الله، 2007، ص 7). وكما يتراءى، فالخوض في النسب التّاريخي هو أيضا قراءة في الهجرات، والترحال من جغرافيّة معيّنة إلى أخرى، كما أنّه تأويل يحاول

تحديد معالم الهويّة، ويسعى إلى القبض على الأصول العريقة، المتماهيّة في الزمن والمكان، ويتعرّض البلاذري إلى مسألة اختلاط العرب بالبربر في بلاد المغرب، فيقول: "وأقام مع البرابرة بنو صنهاجة، وكتامة من حمير، فهم فيهم اليوم" (البلاذري، 1996، ص 11). ويتّضح من هذا المقطع المقتبَس مدى ديناميّة تشريح النسب، وما يفرزه من امتدادات تنسحب حتّى على الحاضر؛ أي لما يربط النسّاب الماضي بوقته (زمن النسّاب)، من أجل إعطاء قراءة تاريخيّة شاملة للتّركيبة البشريّة لمجتمع من المجتمعات.

2.2 علم النسب من وجهة نظر الغزاة:

خلال الزحف الفرنسي على الجزائر، قامت السلطات الفرنسية بإعداد قوائم للقبائل، وثبت للعروش التي كانت متواجدة في الجزائر، وذلك كلما توغلّت جيوشها في المناطق والمدن، حتّى إنّ بيليسييه (Edmon Pelissier) كان ضابطا ومؤرخا في الوقت ذاته، قد أصدر (حوليات جزائريّة)، تتبّع فيها خصوصيات القبائل المنتشرة هنا وهناك، وممّا كتبه عن الأمازيغ قوله إنّه لا يعتبرهم من سلالة النوميديين فقط، بل بالنسبة إليه هم مزيج من عدّة أعراق نتيجة الغزوات التي شهدتها الجزائر من قبل الفينيقيين، والرومان، والوندال والبيزنطيين والأتراك، وهي قراءة تغيأت نفي الهوّيّة والأصالة عن الأمازيغ، من أجل تسويغ كينونة الاحتلال الفرنسي، ولما يصف بيليسييه طبائع الأمازيغ يقول: "يتّخذ الأمازيغ من الجبال سكنا لهم، أين يتمتّعون بأوفر قسط من تلك الحريّة التي وُهِبَتْ للإنسان، وهم مثابرون، ومهاريون وشجعان، ولا يمكن ترويضهم، بيد أنّهم ليسوا من الغزاة في شيء" (Edmond Pelissier, 1845, p 4) ، ويتبيّن من هذا المقتطَف الخلفيّة المرجعيّة الغازيّة للمؤرّخ المتأمّل في أحوال الأمازيغ؛ فقد شدّ انتباه بيليسييه أنَّ مَنْ يصف أصولهم وطبائعهم، "ليسوا من الغزاة في شيء"، ولهذه الملاحظة أكثر من دلالة.

وَجَرَتْ ترجمة الفرنسيين لكل ما له علاقة بجغرافيّة الجزائر، وبطبائع سكّان المناطق المختلفة؛ فمصنَّف (رحلة الأغواطي)، الذي وصف العديد من المدن والمناطق الجزائريّة، وانبرى لتعداد أصول ساكنتها، ولغاتها، وعاداتها، والذي وضعه الحاج ابن الدّين خصّيصا للسفير الأمريكي هودسون سنوات فقط قبيل احتلال الجزائر، قد "سارع الفرنسيون بترجمته وتداوله، وقد كان الفرنسيون أكثر اهتماما عندئذ بافريقية من الأمريكيين" (الحاج بن الدين، 2011، ص 8)، والاهتمام بقراءة نسب وخصائص الإنسان المحتَّل كانت عادة دَرَجَ عليها الغزاة، بل شكّلت فيما بعد مادة دسمة في الأبحاث الإثنولوجيّة والأنثروبولوجية.

وعادة ما تحاول أي قوّة غازيّة تغيير الكثير من المعطيات المنوجدة في البلاد المحتَّلة، كي تسير الأمور كما تراه القوّة الغازيّة، ومن ذلك مساعي تغيير ملامح الأنساب، بما صنعته الإدارة الفرنسيّة إبّان إصدار مرسوم الحالة المدنيّة، إذ تمّ تفريق عوائل بأكملها، كان انتماؤها واحدا، بتلفيق ألقابٍ فَضَّتْ عُرى الانتماء للجدّ الواحد، دون الخوض ههنا في خلفيات تخيّر طبيعة الألقاب المستحدَثة، والتي غالبا ما كانت مشينة، ومسيئة. وهذه آليّة في تفرقة النسب، وتشويهه، بغية إلغاء الهوّيّة الأصيلة.

3 السياق السياسيّ:

1.3 الغاية تبرّر النسب:

كثيرا ما اُتّخِذَتْ قضيّة النسب كغطاء للوصول إلى الحكم، تحت ذريعة الغاية تبرّر الوسيلة، أو بالأحرى الغاية تبرّر النسب؛ إذْ غالبا ما أُلِّفَتْ تصانيفٌ في نسب الأمراء والملوك والسلاطين، ابتغاء تسويغ مآربهم السياسية، بحيث تربط أصولهم إلى غاية ذريّة فاطمة بنت الرسول ﷺ، حتّى تنقاد لهم الرعيّة، وتُحاط هالتهم بشيء من القدسيّة. وخذ على سبيل المثال نسب الخليفة عبد المؤمن بن علي، إذ يذكر البيذق (ت 1164م) أنّ نسبه ينتهي إلى الحسن بن أبي طالب:" فهو عبد المؤمن بن علي بن علوي بن يعلا بن الحسن بن كنونة بنت إدريس بن إدريس بن عبد الله بن القاسم بن محمد بن الحسن بن علي بن أبي طالب بن عبد المطّلب رضي الله عنه" (البيذق، 1971، ص 13)، ويعقّب محقّق كتاب البيذق على هذا النسب، بِنُكْرَان ابن خلدون لصلة الخليفة عبد المؤمن بن علي بعلي بن أبي طالب فيما نصّه: "أنكر ابن خلدون نسب عبد المؤمن بن علي إلى النبي (ص) وإلى العرب مطلقا" (المرجع السابق نفسه).

2.3 المصالحة وإقرار النسب:

ومن التجلّيّات السياسيّة لقضية الانتساب، ما يحصل للأقلّيّات من متاعب، وما يصدر بحقّها من قرارات، ويمكن أن نورد من تاريخ الغرب، ما نشب من صراعات وحروب داميّة بين المذاهب والنحل المختلفة، ومن أبرزها الصراعات بين البروتستانت والكاثوليك، وقد تمّ الاعتراف بحقوق البروتستانت في فرنسا، بعد أن "غادر أكثر من 200000 من منتسبي البروتستانتيّة البلاد. وَمَنْ بقوا كُتِبَ عليهم أن يغيّروا ملّتهم المذهبيّة، وإلّا العيش في السريّة [...]، إلى غاية 1787، ومن هذا التاريخ سوّغَ لويس السادس عشر، وجود البروتستانت

بشكل قانونيّ، بموجب مرسوم التسامح" (Marie-Oldie Mergnac, 2009, p 200)، وبعد هذا القرار السياسيّ، أصبح بإمكان البروتستانت ممارسة شعائرهم الدينيّة، وإجراء ثبت لعقود الزواج المدنيّة، والتمتّع قانونيًّا ورسميًّا بالتّسجيل في الحالة المدنيّة، ومن ثمّة قُيِّض لهم تدوين أنسابهم.

4 السياق الاجتماعيّ:

قد يُوَظَّف النسب أحيانا لغاية اجتماعيّة ما، ومن ذلك "أنّه عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال بلغ النبيّ صلّى الله عليه وسلّم أنّ رجلا من كندة يزعمون أنّه منهم، فقال: إنّما كان يقول ذلك العبّاس وأبو سفيان ابن حرب إذا قدما اليمن ليأمنا بذلك"(أبو سعد السمعاني، 1977، ص 14)، وعليه فقد يجيء سياق النسب متساوقة ومتطلّبات المجتمع الحاضن للفرد، سواء كان عنصرا عضويّا فيه، أو وافدا إليه، بحيث قد لا يجد بدّا من تلفيق نسب واهٍ، ابتغاء حماية نفسه، واتقاء شر قومٍ؛ فيصبح بذلك النسب كآليّة بقاء وجودي لا غنى عنها.

1.4 العصبيّة الموجبة والعصبية السالبة:

تُعدُّ فكرة العصبيّة من أبرز أنساق النسب المشترك، وما ينعقد في إطاره من تحالفات وانحيازيات جماعيّة؛ فبالنسبة لابن خلدون بالعصبيّة يكون "تمهيد الدّولة وحمايتها من أوّلها" (عبد الرحمن بن خلدون، 2004، ص 310)، ولكي تقوم قائمة العصبيّة، وتتحرّك آلتها، يقول الجابري: "إنّ القرابة والملازمة شرطان ضروريان لوجود العصبيّة" (محمد عابد الجابري، 1996، ص 167). فالنسب ينطوي على ذلك التّأثير الجاذب للتعاون والتشارك الاجتماعي، تحت لواء التقارب والانتماء الواحد؛ إذ قد تستحيل آليّة العصبيّة إلى قوّة إيجابيّة في حال الدفاع عن الوطن؛ أي الذود عن الهوّيّة المشتركة، والأرض الجامعة، والثقافة المتقَاسمَة، والنسب المتقارب، كما تنتظم العصبيّة الموجبة كخلفيّة صلدة، لما تؤطّر –في حال الاستناد إليها– مسألة بناء مشروع مستقبلي جماعي، يتطلّب تضافر الطاقات وامتزاج الجهود. بيد أن العصبيّة قد تكون

سالبة، ووبالا على جماعة ما، إذا ما غلبهم التفاخر، واستحكم فيهم التهوّر، وعمّهم الجهل؛ ذلك أنّ "العصبية الفاسدة تكون عَدَمًا لا وجود له، شأنها شأن أيّ شر كما تقرّر لدى الحكماء والفلاسفة"(الحسين بن الحيدر الهاشمي، 2007، ص 36). ومن مظاهر العصبيّة المفرطة، وتقدير نسب القبيلة الزائد في الجاهليّة، ما كان يؤدِّيه شاعر القبيلة من رفع لشأنها، ومن تعظيم لحالها؛ فاستحال الشاعر إلى ذلك السلاح المعنوي الحاد والفاتك، الموجَّه صوب الأعداء؛ فيذكي لحمة القبيلة بما يتحفها به من مآثر وبطولات، وما يهيّجه في نفوس أفرادها من نخوة فيّاضة، وقد "كان الشاعر في هذه الحقيقة [الجاهلية] مَلِكًا يبايع الأمراء ويبايعونه، ويرفع بعض القبائل إلى القمّة، ويهبط بالبعض إلى الحضيض، ويشعل الحروب الداميّة"(غازي القصيبي، 2001، ص 11). وقد كانت رابطة النسب هويّة القبيلة الأولى، التي تنعقد بها اللحمة، ويلتف حولها المنتسِبون إليها، وباعث الولاء المطلق للقبيلة هو ذلك الذوبان الحاصل بين أفرادها قهرا، لمتانة وشيجة الانتماء واستحكامه، وقد عبّر عن هذه الروح الجمعيّة المتمكنة من قلوب وعقول المنتسبين إلى القبيلة عينها قول الشاعر دريد بن الصمّة (ت 8هـ) (دريد بن الصمّة، 1980، ص 62) :

وهل أنا إلّا من غَزِيَّةَ إن غوتْ غويتُ وإن ترشدْ غزيّة أَرْشَدِ

ولقد حاربت النظرة الإسلاميّة هذه العصبية السالبة، وأحلّت محلّها حسن المعاملة "الدين المعاملة"، والتكافل الاجتماعي (لتحقيق العدالة)، والتآخي ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾ (سورة الحجرات، ص 10) ، والتواضع (والنّهي عن التكبّر)، والتّقوى "إنّ أكرمكم عند الله أتقاكم" (عطية محمد سالم، 1988، ص 95)، وكلّها مبادئ جاءت لتقويض آليات النعرات القبليّة، ولتحييد أنساق التكتّلات الضيّقة، واستبدالها بمحاولة إرساء أواصر وحدة روحيّة، تتجاوز العرق والنسب ومفهوم الانتماء الضيّق، وما يؤكد مصداقيّة هذا الكلام مضمون حجة

الوداع المشهورة، الذي لخصّ رسالة الإسلام في تكريس لُحْمة الأصل الواحد بين أفراد المجتمع، من دون تفرقة أو مَيْزٍ: "إنّ ربكم واحد، وإنّ أباكم واحد" (المرجع السابق نفسه).

وَحَدَثَ أنْ خَفُتَ وهجُ الشعر الداعي للتفاخر والهجاء في صدر الإسلام، إذ "تحوّل الشعراء الذين يؤججون النزعات القبلية إلى مصدر إزعاج للأمة الوليدة [الأمة الإسلامية]" (غازي القصيبي، 2001، ص 25). فالنظرة الضيقة للشاعر المدافع عن مصالح القبيلة الصغيرة، كان يتعارض جملة وتفصيلا ومبادئ الوحدة الكبرى، التي صرّح بها الإسلام، في سبيل لملمة شمل الناس أجمعين دون تفرقة أو مَيْزٍ. وبذا، فثورة الإسلام الشاملة خالفت ذهنية الانتماء الضيّق، وما يحفّها من شعور بالهوّيّة القبليّة، تبعا لما يتمخّض عن هذه الأخيرة من إحالات ودلالات سلبيّة، لا تصبّ إلّا في التشاحن والتفرقة والتعصّب البليد، وقد نجحت المعالجة الإسلاميّة للعصبيّة، من خلال المؤاخاة بين المهاجرين والأنصار، في إرساء دعائم لحمة مؤدّاها الانتساب إلى الدين الواحد.

ومع التحوّلات التي طرأت على المجتمع الإسلامي، راجت في النفوس نظريات التحزّب من جديد، وتبوتقت أنساق من التكتّلات التي سعت إلى زحزحة مفاهيم من شاكلة: الهوّيّة، والجماعة، والانتماء، وذلك وفق تصوّرات عقديّة، وعرقيّة، ونفسيّة، بتحريك من آليات يحكمها التحيّز والتعصّب؛ إذ في العصر الأموي "عادت التحزبات القَبَليَّة، ورفع الشعراء من جديد أعلام القبلية"(غازي القصيبي، 2001، ص 26)، وغير خاف مدى تأثير الشعر، من الناحيّة النّفسيّة، في إذكاء مشاعر الانتساب إلى القبيلة الواحدة، وفي المنافحَة عنها مهما كان السبب، "وكان الشعر قادرا على إيقاظ كل القوى القبلية الغريزيّة التي حاول الإسلام القضاء عليها" (المرجع السابق، ص 29).

2.4 التمذهب وصياغة انتساب مستحدَث:

وفي التّاريخ الإسلامي، بعد حصول التشاحنات السياسيّة، وانعقاد التحزّبات المذهبية بين سنّة وشيعة، تأثّر المجتمع من جرّاء هذين الانتماءين البارزين، لاسيما من ناحيّة تسميّة الذريّة؛ فإذا كان أهل السنّة لا يُفَرِّقُونَ بين أسماء الخلفاء وأهل البيت، وَيُسَمُّونَ أولادهم بهم جميعا، ففي "المقابل، لا يستخدم الشيعة أسماء الخلفاء الثلاثة [الأوائل]، على الأقل ابتداءً من منتصف القرن التّاسع [الميلادي]، على الرّغم من أنّ ابني علي نفسه حملا اسمي عمر وعثمان" (Annemarie Schimmel, 1998, p 54)، ويتراءى من هذا التّدليل، مدى تأثير التحيّز المذهبي في مسألة خيار تسميّة الأولاد من جهة المجتمع الشيعيّ، إذ غدت هوّيّة التّسميّة مقتصرة على إيثار أسماء أهل البيت، وتحاشي أسماء الخلفاء والصحابة، في حين يتبنّى السنيُّون أسماء أهل البيت والخلفاء الأوائل، ولا يقيمون مَيْزاً بين هؤلاء وهؤلاء، وفي هذا الشأن يقول واضع (**طبقات النسابين**)، ما نصّه: "وقد رأيتُ للشيعة كتابا مطبوعا باسم أمنية الراغبين في طبقات النسّابين لمؤلفه عبد الرزاق بن حسن كمونة، وهو [يشيد] بأعلام الشيّع، و[يحط] من جماعة أهل السنّة، بل من الصحابة رضي الله عنهم" (بكر أبو زيد، 1987، ص 8).

وبذا، يتراءى كيف تُحرّك الميولات العقديّة والتمذهبات الطائفيّة أنساق التحيّزات الاجتماعيّة، بممارسة تشطير وشائج الهويّة الجامعة، فإذا كانت قراءة أهل السنّة لا تستند إلى القيام بإسقاطات ذات صلة بالاختلافات السياسيّة التي نشبت إبّان القرن الأول من التاريخ الهجري في تسميّة الذريّة؛ فإنّ حدّة الخلافات هذه قد بلغت مبلغا متوارَثًا في السياق الشيعيّ، لما رمت إليه من تكريس نوع من الإقصاء المعنوي إزاء تداول أسماء بعض الصحابة الأوائل، ومن ثمّة صوغ انتساب روحي يتعصّب إلى آل البيت، تشبَّع بشحنة رمزيّة بحيث مورست الانتقائيّة في تسميّة النّسل، وقد ولدّ هذا الصوغ في الانتساب المستحدَث شرخا في الهُوّية

الإسلاميّة الجامعة، وقد تأسس التحيّز الشيعي أكثر على خلفيّة تاريخيّة سياسيّة: (مقتل الحسين)؛ فشكّل هذا الحدث رمزيّة القطيعة داخل الحيّز الاجتماعيّ الإسلاميّ.

3.4 النسب في سياق المجتمع الغربي:

وفي المجتمعات الإقطاعية الأوربية القديمة، لاسيما بين القرنين الخامس والسابع، "كانت المصنفّات الخاصّة بعلم الأنساب امتيازا يحظى به الملوك" (G. Butau &V Péri, 2006, p6) ، وما يشدّ الانتباه أنّه حتّى في القواميس اللغوية الغربية القديمة، كان معنى علم الأنساب مرادفا لمبحث يتميّز به النبلاء عمّا سواهم. وتبعا لذلك كان ديدن الكثيرين آنذاك منكبّا على ادعاء الانتماء إلى طبقة النبلاء، ولو بطرق غير مشروعة؛ "ففي القرون الوسطى، كانت الدير تضع العقود المزوّرة [...]. وكانت تسنح بشرعنة الأملاك العقاريّة، من أجل الحصول على امتيازات ولاسيما الحصانة" (Ibid, p 261). وقد بلغ الأمر بطبقة النبلاء أن سعت جهد الطّاقة إلى الحفاظ على ما حسبته نقاءً طبيعيّا يميّز دمّ أفرادها، إذْ نال النسب حظّا وافرا من التّقدير والمحافظة، وتلافوا أسباب الاختلاط مع الطبقات الأخرى، التي كانت تدخل في تركيبة المجتمع؛ فَقَبْلَ الثورة الفرنسيّة مثلا؛ "كان يُخشَى من أن يؤدّيَ التزاوج بين الطبقات الاجتماعيّة المختلفة إلى اختلاط الدّم" (P. Valéry Archassal, 2000, p 16). ومن حمولات النسب الاجتماعيّة ترسيخ فكرة الطبقيّة الثاويّة على تباين الحظوة؛ فطبقة النبلاء هويتها تتمثّل في المِلكيّة والثروة المكدّسة، وقد ربطت هذا المعنى بمحاولة الحفاظ على شريحتها الاجتماعيّة، بمنع أيّ اختلاط في الأنساب مع الطبقات الدنيا التي يتركّب منها المجتمع.

ولا يعزب عن البال، أنّ فكرة التميّز الطبقي تحوّلت فيما بعد لتغدو تميّزا بين الأعراق، وقد راجت في المجتمعات الأوربيّة، أين احتضنت لقرون طوال نظريات التفوّق العرقيّ، ومن أبرز من نظّر في هذا السّمت رينان، وفي القرن الماضي قام هتلر بتطبيق ما زعمه من تفوق

جرماني على كلّ الأعراق البشريّة والمجتمعات الأخرى، وَنَعْلَمُ ما استتبع فكره هذا من حروب شاملة وفاتكة.

5 السياق اللغويّ:

يعكس النسب أحيانا دلالات لغويّة لها تأثيلاتها الخاصّة وملابساتها التّاريخيّة، التي أدّت إلى استحداثها، ومن ذلك ما راح يقوله البلاذري بشأن تسمية البربر بهذا الاسم؛ فبالنسبة إليه: "وسمع كلام هؤلاء [أي البربر] العماليق، فقال: ما أكثر بربرتهم . فسموا البرابرة" (البلاذري، 1996، ص 11) ؛ وبغضّ النظر عن هوّية من أطلق تسميّة البربر على الأمازيغ؛ ذلك أنّ الإغريق سمّوا ما سواهم من الشعوب بالبرابرة، فإنّ مدلول البربر مفادُه عجمة اللسان واختلافه.

وفي المجتمع الجزائري، نشأ نسبٌ جديدٌ سميّ بالكراغلة، من طريق تزاوج الانكشاريين بالنساء الجزائريات، وقد أتاح هذا الجنس المولّد توطيد التواجد العثماني، بما أنّ الكراغلة أصبحوا شريحة اجتماعية جديدة، وانضافت إثر ذلك ألقابٌ جديدة في سجّل الأنساب الجزائريّة، ولعلّ أشهرها: سطنبولي، زميرلي...إلخ، وهي ألقاب ذات دلالات لغويّة عاكسة لتسميّة منشأ الزوج، وفي السياق هذا، تعود نسبة اللقبين إلى مدينتي اسطنبول وأزمير. والحال هذه، فقد شكّل الكراغلة رابطة جديدة بين الجزائريين، والعسكريين التّابعيين للسلطة العثمانيّة، "والواقع أنّ الكراغلة كمصطلح هي فئة اجتماعيّة تكوّنت في العهود الأولى للوجود العثماني خاصة عقب سماح خير الدين بربروس للانكشارية بالزواج [من الجزائريّات] بعدما كان رافضا للفكرة" (حبيبة عليليش، 2015، ص 12). وتكشف الألقاب التركيّة الأصل حجم التفاعلات التي طرأت في المجتمع الجزائري؛ إذْ أضافت الألقاب ذات الاشتقاق التركي دلالات وحمولات لغويّة جديدة، إلى سِجّل النسب الجزائري.

خاتمة:

لقد حاولنا تتبّع سياقات توظيف علم الأنساب، بما اتيح من تفصيل في الجانب العربي بخاصّة، وعلى وجه تكملة الصورة بالتطرق كذلك إلى الجانب الغربي وإنْ لماما. وتبيّن أنّ ميدان علم الأنساب ليس بالحقل المنعزل؛ فهو مبحث يتفاعل مع الكثير من الحقول المعرفيّة، وقد تجاوز تصوّره التّقليدي المعهود؛ أي كونه دائرة حفظ مدوَّنة القبائل والشعوب، وبوصفه سِجِّلاً لثبت الأصل، وتحديد الانتماء، وتدوين القرابة، بل وقد غدت تنعقد عليه العمدة في قراءة بنيّة الهوّيّة المعقّدة وأبعادها المختلفة، وفي فهم الثقافة الدينيّة وتفكيك أنساقها، وفي تأويل الرواية التّاريخيّة وأحداثها، وفي رصد آليات الحراك الاجتماعي وتقلبّاته، وفي تفسير التّغيّرات السياسيّة للجماعات المتصارعة وبواعثها، التي تقوم قائمتها على العصبيّة والتحيّز القبليّ. وللنسب بعدٌ لغويٌّ يجعل خلفيّات الألقاب وتخيّر الأسماء ذات دلالات ومرجعيّات خاصّة، لها شقٌّ غير هيّن من التّبريرات التّأثيليّة.

إنّ رصد طائفة من السياقات التي تجلّى فيها علم النسب تشير إلى مركزيته في السياقين العربي والغربي على حدّ سواء. وتجلّت رمزيته من خلال تصوّر الهوّيّة ومرتكزاتها، إذ كان عنصرا فاعلا في تشكيلها وفي إعادة تشكيلها باستمرار وفق أنماط تفكير راجت لدى مجتمع ما، تبعا لأنّ الهوّيّة قابلة للانشطار والتّشظي تماشيّا والعواطف التي تتحكّم فيها السياقات التّاريخيّة والعقديّة؛ فتتولّد أنساق جديدة ترسم حدود وعيّ منفعل مع أحياز محيطه القريب. ولا غرابة في كون علم الأنساب مبحثا فاعلا وفعّالا؛ فقد أسهم بقسط وافر في مجال الفهم والتّأويل، وفي تعريّة الخلفيات الثقافيّة المتشابكة التي يستند إلى تبريراتها أفراد المجتمع. وتنوّع سياقات علم الأنساب تجعله، إذاً، مبحثاً طافحاً بالحيويّة والخصوبة في الآن نفسه.

قائمة المراجع:

القرآن الكريم.

ISSN/2353-0197 EISSN/2676-2102

1. بالعربية:

– أبو زيد بكر، طبقات النسابين، ط 1، دار الرشيد، الرياض، 1987م.

– الأندلسي ابن حزم (ت 1064م)، جمهرة العرب، تحقيق عبد السلام محمد هارون، ط5، دار المعارف، القاهرة، 1982م.

– البلاذري أحمد بن يحي بن جابر (ت 892م)، أنساب الأشراف، تحقيق سهيل زكّار ورياض زركلي، ط1، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، ج1، بيروت، 1996م.

– البيذق أبو بكر الصنهاجي (ت 1164م)، المقتبس من كتاب الأنساب في معرفة الأصحاب، تحقيق عبد الوهاب بن منصور، دار المنصور للطباعة والوراقة، الرباط، 1971م.

– الجابري محمد عابد، فكر ابن خلدون، العصبية والدولة: معالم نظرية خلدونيّة في التاريخ الإسلامي، ط6، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، 1996م.

– الحاج (ابن) الدين، رحلة الأغواطي، تحقيق أبي القاسم سعد الله، المعرفة الدولية للنشر والتّوزيع، الجزائر، 2011م.

– خلدون (ابن) عبد الرحمن (ت 808هـ)، المقدمة، تحقيق عبد الله محمد الدّرويش، ط1، دار يعرب، ج1، دمشق، 2004م.

– سالم عطيّة محمد، مع الرسول صلّى الله عليه وسلم في حجة الوداع، ط1، دار التراث الأولى، المدينة المنوّرة، 1988م.

– سعد الله أبو القاسم، أبحاث وآراء في تاريخ الجزائر، دار البصائر، ج1، الجزائر، 2007م.

– سعد الله أبو القاسم، تاريخ الجزائر الثقافي 1500–1830، ط1، دار الغرب الإسلامي، ج2، بيروت، 1998م.

– السمعاني أبو سعد (ت 1166م)، الأنساب، تحقيق عبد الرحمن بن يحي اليماني، ط1، الفاروق الحديثة للطباعة والنشر، الهند، 1977م.

– الصمّة (بن) دريد، ديوان دريد بن الصمّة، تحقيق عمر عبد الرسول، دار المعارف، القاهرة، 1980م.

– العسقلاني الحافظ أحمد بن علي بن حجر (ت 1494 م)، هداية الرواة إلى تخريج أحاديث المصابيح والمشكاة، ط1، دار ابن القيم/ دار ابن عفان، المجلد الرابع، ، السعودية/ مصر،2001م.

– عليليش حبيبة، الكراغلة في المجتمع العثماني الجزائري قرن 10–13هـ، مذكرة ماستر، إشراف: نادية طرشون، جامعة يحي فارس، المديّة، الجزائر، 2015م.

– القصيبي غازي بن عبد الرحمن، عن قبيلتي أحدثكم، ط1، منشورات الزمان، لندن، 2001م.

– مختار عمر أحمد وآخرون، معجم اللغة العربية المعاصرة، ط1، عالم الكتب، المجلّد الأوّل، القاهرة، 2008م.

– الهاشمي الحسين بن حيدر، "العصبيّة"، مجلة الأنساب، عدد 54، صص (36–37)، بغداد، 2007م.

2. باللغة الأجنبية:

- Archassal Pierre-Valéry, *L'ABCdaire de la généalogie*, Flammarion, Paris, 2000.

- Butaud Germain & Piéri Valérie, *Les enjeux de la généalogie XII-XVIII siècle*, éditions autrement, coll. « Mémoires », Paris, 2006.

ISSN/2353-0197 EISSN/2676-2102

- Mergnac Marie-Odile, *Ma généalogie de siècle en siècle*, Archives et culture, Paris, 2009.
- Morant Guillaume, *Les mormons et la généalogie*, Archives et culture, Paris, 2015.
- Nemo Alain, *Généalogistes, ethnographes : votre dictionnaire*, France, 2008.
- Pellissier Edmond de Reynaud, *Annales algériennes*, Tome1, Librairie militaire, Paris, 1854.
- Plonéis Jean-Marie, *L'identité Bretonne : l'origine des noms de personnes*, éditions du Félin, Paris, 1996.
- Schimmel Annemarie, *Noms de personne en islam*, traduit de l'anglais par Leîli Anvar-Chendroff, PUF, Paris, 1998.
- Widlocher Daniel, « C'est toi qui l'a nommé », in : Céline Masson et Michel Gad Wolkowicz, *La force du nom : leur nom, ils l'ont changé*, Desclée de Brouwer, coll. « Espace du sujet », pp. (355-360), Paris, 2010.